

الأخلاق في الاقتصاد الإسلامي: في الخطاب القرآني

د. عمر الكتاني

أستاذ التعليم العالي بكلية الحقوق جامعة محمد الخامس أكادال / الرباط

أولاً: في ماهية الاقتصاد الإسلامي

كلمة اقتصاد في المصطلح اللغوي تعني شيئين اثنين: البحث عن قصد أي هدف، وتعني كذلك التوسط؛ (أي اختيار الحلول الوسطى)؛ بمعنى الموازنة بين الرغبات والإكراهات. وبالتالي لو أدمجنا المفهومين لأصبحت كلمة اقتصاد تعني التوازن في سبيل تحقيق هدف مادي معين.

أما إذا أضفنا كلمة "إسلامي" فيمكن تعريف الاقتصاد الإسلامي بأنه "مجموع المفاهيم والقواعد والنظريات والمعاملات التي تهدف إلى تسخير المال للرفع من قيمة الإنسان من خلال تحقيق توازن وتزاوج بين المصلحة المادية والمصلحة الروحية من جهة، وتوازن بين المصلحة الفردية والمصلحة الجماعية من جهة ثانية". ويبرز الجانب الأخلاقي في السلوك الاقتصادي أساساً من خلال أولوية الجانب الروحي على الجانب المادي، وأولوية المصلحة الجماعية على المصلحة الفردية في حالة تعارضهما.

وحيث أن الاقتصاد سلوك، والسلوك قيم، والقيم أخلاق، فلا يمكن تصور سلوك اقتصادي خارج معايير أخلاقية. وبالتالي لا يمكن فصل الدين عن العلم خصوصاً العلوم الاجتماعية التي تركز على سلوك الإنسان، كما لا يمكن فصل الدين عن الدولة في بعض العبادات (تطبيق الزكاة مثلاً) وفي كل المعاملات.

والنظام الاقتصادي الإسلامي جزء لا يتجزأ من النظام الاجتماعي الإسلامي الذي يحدد المعايير الأساسية لسلوك الإنسان ظاهراً وباطناً، تاركاً له صلاحية ابتكار المناهج والطرق الكفيلة بتحقيق رفاهيته المادية وراحته النفسية. وهذا الجزء يحمل بالتحديد مبادئ وقيم تنظم علاقة

الفرد وعلاقة المجتمع بالمال؛ أي تحدد قواعد سلوك المجتمع المسلم مع المال.

وقيم الاقتصاد الإسلامي جزء من القيم الاجتماعية؛ بحيث لا يمكن أن تتعارض القيم الاقتصادية مع القيم الاجتماعية الإسلامية انطلاقاً من وحدة السلوك الإنساني من جهة، ووحدة السلوك المجتمعي من جهة ثانية كشرط لتحقيق الاستخلاف في الأرض وبناء الأمة.

والاقتصاد الإسلامي، تبعاً لذلك، لا يبحث في ماهية المعايير؛ لأنها محددة مسبقاً، بالقرآن والسنة، وهو من هذا المنطلق ليس اقتصاداً معيارياً من حيث بحثه على إنتاج المرجعيات والمعايير الصالحة للمعاملات الاقتصادية والمالية، كما هو الأمر في المدارس الاقتصادية الغربية، إلا ما تعلق بتقييم شرعية هذه المعاملات وقياس درجة هذه الشرعية.

ومقاصد الشريعة الخمسة واضحة: (حماية الدين والنفوس والعقل والنسل والمال). وحيث أن مقاصد الشريعة مرتبطة بعضها ببعض، نجد أن الاقتصاد الإسلامي جاء بقصد حماية كرامة الإنسان من خلال حماية المال، وتحقيق العمران في الأرض في إطار استخلافه في الأرض.

فالاقتصاد الإسلامي يعد في واقع الأمر اقتصاداً إيجابياً يبحث في المناهج والآليات والمؤسسات الاقتصادية والمالية الكفيلة بتحقيق التنمية والعدالة الاجتماعية في إطار الشرعية الإسلامية.

إن المفاهيم الاقتصادية الإسلامية، في حد ذاتها، تختلف عن المفاهيم المتعارف عليها في الاقتصاد الوضعي؛ فالمصطلح الاقتصادي الإسلامي يحمل، في أغلب الأحيان، حمولة أخلاقية.. فالاستثمار يعني حقيقة الاستثمار الشرعي، والادخار يعني الادخار الشرعي، والاستهلاك يعني الاستهلاك الحلال، حتى أن كلمة حلال دخلت الخطاب التجاري في الأسواق الغربية كمعيار أخلاقي، بينما المصطلح الاقتصادي نفسه في المفهوم الوضعي لا يتجاوز الحمولة التقنية أو القانونية.

والإسلام يتميز، وفقاً لذلك، عن الشرائع المسيحية واليهودية والديانات الكبرى البوذية والهندوسية، التي تركز كلها على الجانب الأخلاقي في بعده الفردي، بمنظومة اقتصادية أخلاقية، فردية وجماعية متكاملة. وهي مفصلة فيما يخص المعايير التي تحكم المعاملات الاقتصادية والمالية، سواء تعلق الأمر بنظام الملكية أو بنظام الإنتاج أو بنظام التوزيع، لذا لا نجد الحديث عن اقتصاد مسيحي أو يهودي أو بوذي أو هندوسي في أدبياتهم.

ويغلب على هذه المعايير الطابع التربوي الأخلاقي المباشر أو غير مباشر. وتحدد في كل واحد منها خصائص المعاملات المحرمة أو المفروضة أو المستحبة. وتحدد، كذلك، درجة الثواب أو العقاب بحسب المعايير الإلهية الملزمة.

وبناء الإنسان المسلم ينطلق من عنصرين متكاملين: الفطرة وهي خصائص الإنسان الأخلاقية الطبيعية، والتربية الإسلامية وهي القيم الإسلامية التي تحملها الشريعة. والاقتصاد كسلوك اجتماعي لا يخرج عن هذه القاعدة الثنائية المبنية على تكامل الفطرة والتربية.

ثانياً: الأخلاق في الاقتصاد الإسلامي تنطلق من فطرة الإنسان

تحمل فطرة الإنسان في آن واحد خصائص محمودة وخصائص مذمومة، وبذلك تخضع النفس البشرية للامتحان الدنيوي. وهناك عدة آيات تشهد على طبيعة الجشع لدى الإنسان وخوفه من الفقر ونزوعه نحو الإيمان، وهي خصائص بشرية متناقضة. يقول الباري، عز وجل، في الإقرار بتمسك الإنسان بالدنيا: ﴿المال والبنون زيناة الحياة الدنيا﴾ (الكهف: 45).

ويقول، الله تعالى، محذراً: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناصر المقنصرة من الذهب والفضة والغيل المسومة والأنعام والحر﴾ (آل عمران: 14)؛ ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد﴾ (الحديد: 20).

﴿يأبى الله الكين آمنوا لا تلهكم أموالكم وأولادكم عن ذكر الله﴾ (المنافقون: 9).

ولذا يوصي الله، عز وجل، الإنسان بالتصدق بما يحب. قال تعالى: ﴿وآتى المال على حبه ذواي القربى واليتامى والمساكين﴾ (البقرة: 176).

ويقول، عز وجل، في خوف الإنسان من الفقر: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ (البلد: 4)؛ أي في شدة وطلب معيشة. ويقول كذلك ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً. إذا مسه الشر جزوعاً. وإن مسه الخير منوعاً﴾ (المعارج: 19-21). وقال تعالى للخائفين من الفقر: ﴿وإن خفتهم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء﴾ (التوبة: 28).

ولكن فطرة الإنسان لا تقف عند حب المال أو الخوف من الفقر، ولكنها كذلك تتميز بحب الإيمان وعمل الخير، في قوله تعالى ﴿ولكن الله يحب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم

الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشكون. فضلا من الله (الحجرات: 7-8).

كما تتميز أحيانا بإيثار الغير على النفس في قوله تعالى: «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» (الحشر: 9).

أما بالنسبة للتربية الأخلاقية الإسلامية فيمكن تصنيفها إلى ثلاثة أقسام: 1. الأخلاق الموصى بها شرعا، 2. الأخلاق المنهي عنها، 3. الأخلاق المستحبة.

1. الأخلاق الموصى بها شرعا

أ. في الإنفاق

الالتزام بالأمانات والعهود

قال تعالى:

«فإن آمن بعضكم بعضا فليؤاؤمن أمانته وليتق الله به» (البقرة: 282).

«إن الله بامركم أن تولجوا الأمانات إلى أهلها» (النساء: 57).

«ولا تقنونا الله والرسول وقنونا أماناتكم وأنتم تعلمون» (الأنفال: 27).

«والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون» (المؤمنون: 8؛ المعارج: 32).

«وأوفوا بالعهد، إن العهد كان مسئولا» (الاسراء: 34).

«وأوفوا الكيل والميزان بالقسط» (الأنعام: 153).

«فلوفوا الكيل والميزان، ولا تبغسوا الناس أشياءهم» (الأعراف: 84).

الالتزام بنفقات التكافل الأسري والاجتماعي

النفقة على الوالدين

قال تعالى:

«يسئلونك ماذا ينفقون، قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين» (البقرة: 213).

«إن ترك خيرا الوصية للوالدين» (البقرة: 179).

النفقة على المولود عند الطلاق

قال تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة: 231)؛ أي النفقة على المطلقة إن أرضعت ولدها أو المرأة التي أرضعته.

النفقة على ذوي القربى

قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (النور: 22)؛ أي لا تتوانوا عن صلة قرابتكم المساكين والمهاجرين، وهذا في غاية الترفق والعطف على صلة الرحم.

النفقة على أولى القربى في الإرث والمحتاجين

قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ (النساء: 8).

النفقة على السفهاء حماية لأموالهم

قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا، وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (النساء: 5).

في التكافل الأسري والاجتماعي نجد الحث على صيانة كرامة الأسرة وكرامة المجتمع، وإذكاء روح الانتماء للجماعة، وإبعاد الشعور بالغيرة والحسد، وتغذية روابط الحب مع الآخرين والتعاطف معهم والتحسيس بثقل أمانة المال.

فداء الأسرى

قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَأْتِكُمْ أُسْرَى تَقَالِفُوهُمْ﴾ (البقرة: 85).

وهذه من أخلاق الإسلام في الحرب التي لها بعد مالي. وهي اعتراف للأمة بتضحيات المحارب، وتعبيراً لوفاء الأمة لأسرى الحرب.

البر والإحسان

هناك آيات عديدة تعرف بالبر والإحسان وتحث عليه، كقوله عز وجل:

«مَثَلُ الْكَيِّنِ بِنَفْقِهِ أَمْوَالُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ مِصْرَ سَبْعِ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ،

والله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم» (البقرة: 260).

«يوم لا ينفع مال ولا بنون. إلا من أتى الله بقلب سليم» (الشعراء: 88-89).

«خذ من أموالهم صدقة تكفر عنهم ذنوبهم بها وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم، والله سميع عليم» (التوبة: 104).

«ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبیین وآتى المال على حبه ذور القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل» (البقرة: 176).

«ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس» (البقرة: 222).

«وبالوالدين إحسانا وبذی القربى والیتامى والمساكين والجاری القربى والجاری الجنب والصاحب بالجنب وابن السبیل» (النساء: 36).

البر والإحسان من الأخلاق النبيلة التي يحث القرآن الكريم على التحلي بها وقد ربطها الباري، عز وجل، مرارا بإنفاق المال في أبواب الخير، وفي الأقربين. ووعد بالأجر المضاعف عليها. وفرض جزءا منها وترك الباقي تطوعا رأفة بالمتصدق وامتحانا لقدرته على شراء آخرته بما رزقه الله في دنياه.

- إمهال المعسر -

قال تعالى: «وإن كان ذو عسرة فنخرة إلى ميّسرة» (البقرة: 279). وهنا يبرز خلق الرأفة والحلم بمن يجد نفسه في ضائقة مالية. فقد حرم الإسلام أداء أي تعويض مقابل التأخر في أداء الدين. وهي قيمة أساسية في التعامل المالي الإسلامي قلما وقع التركيز عليها من طرف الباحثين. وهذا يدل على أن الأصل في المعاملة هو الثقة. والأصل في الثقة هو المسؤولية الذاتية قبل أن تكون مسئولية القانون. ومن تجاوزها يعتبر خائنا للأمانة وعقابه شديد.

ب. في العدل والمساواة

- العدل المقرون بالإحسان -

قال تعالى: «إن الله يامر بالعدل والإحسان» (النحل: 90).

- العدل في كتابة الحقوق والديون -

قال تعالى:

«وليكتب بينكم بالعدل» (البقرة: 281).

«واشهدوا غور عدل منكم وأقيموا الشهادة لله» (الطلاق: 2).

الطمأنينة في البيع من خلال الإشهاد

قال تعالى:

«واشهدوا إذا تبايعتم» (البقرة: 281).

«وإذا حكمتكم بين الناس أن تحكموا بالعدل» (النساء: 57).

العدل في صيانة الحقوق

قال تعالى: «إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا» (النساء:

134).

العدل في الكيل

قال تعالى:

«وأوفوا الكيل والميزان بالقسط» (الأنعام: 153).

«فأوفوا الكيل والميزان، ولا تبخسوا الناس أشياءهم» (الأعراف: 84).

ج. في الاستهلاك

قال تعالى في استغلال نعم الله: «كلوا من حيثاء ما رزقناكم واشكروا لله» (البقرة:

171).

وقال تعالى في تحديد ما يسمح بأكله:

«فكلوا مما رزقكم الله حلالا حلييا، واشكروا نعمت الله» (النحل: 114).

«كلوا من حيثاء ما رزقناكم ولا تصغوا فيه» (طه: 79).

«كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين» (البقرة: 60).

﴿يَا أَيُّهَا الرِّسْلُ كُلُوا مِنَ الصَّيْبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ (المؤمنون: 52).

وقال تعالى في ما يتعلق بأضحية العيد:

﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَصْعَمُوا الْبَاسِ الْفَقِيرَ﴾ (الحج: 26).

﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَصْعَمُوا الْقَانِعَ وَالْمَعْتَرَّ﴾ (الحج: 34).

وهنا الخطاب فيه دعوة صريحة للتصدق منها للفقراء والمساكين.

وقال تعالى في آداب الأكل:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ (النور: 59).

﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ (المائدة: 5).

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِثَلَاثَةِ مَوْمِنِينَ. وَمَا لَكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَضَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ (الأنعام: 119-120).

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ (الأنعام: 122).

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ

تَأْكُلُوا مِنْ بَيْتِكُمْ أَوْ بِيوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بِيوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بِيوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بِيوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بِيوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بِيوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بِيوتِ أَخَوَالِكُمْ أَوْ بِيوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْمْ مِمَّا فَلَاحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ (النور: 59).

وهذه الآية تحمل معاني أخلاقية في غاية السمو، فعملية الأكل جماعة تعبير عميق على الشعور بالتآخي والتقارب والتشارك في نعم الله، ولا حرج فيها إذا شارك فيها من يشكو من عاهة أو مرض. كما لا حرج إن أكل الإنسان في بيت أقاربه أو أصدقائه في حالة غيابهم عن البيت إذا كان عن طيب خاطر منهم، كما ورد في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "إنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه"^{1,2}.

1. (رواه أحمد) الماوردي 143/3.

2. محي الدين عطيه، "الكشاف الاقتصادي لآيات القرآن الكريم" المعهد العالي للفكر الإسلامي، هيرندن، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ص71.

وبشكل عام، فإن هاته الآيات تحدد شروط الاستهلاك وأدابه. فالمسلم يتعين عليه أن يأكل ما هو طيب وما كسب بالحلال، وأن يذكر اسم الله في الذبائح وقبل الأكل، وأن يشكر الله على نعمته، وأن لا يأكل المحرمات إلا في حالة الضرورة، وأن لا يطفئ بما حباه الله من نعم وأن لا ينسى إطعام الفقراء، وأن ينأى عن الشعور بالحرج في الأكل مع من وضعه الصحي غير سليم.

د. الأخلاق المعبرة عن قوة النفس

الصبر في البأساء

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: 154).

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْمَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ (البقرة: 176).

قال ابن مسعود: "البأساء الفقر والضراء السقم"¹.

هذه الآيات تعبر في الوقت نفسه عن قانون الابتلاء الذي سنّه الله للإنسان لامتحانته، وترويض النفس على الصبر وتقويتها لإعلاء قوة النفس وسموها إزاء المال.

التعفف

قال تعالى: ﴿يَعْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ (البقرة: 272).

الصبر والعفة من أخلاقيات قوة النفس لدى المسلم.

2. الأخلاق المنهى عنها

أ. في الإنفاق

أكل ما هو حرام

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْخَمْرُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلُ لَغِيرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَكِّيَّةُ وَالنَّصِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ (المائدة: 4).

وفي سياق هذا التحريم، الذي يعد بمثابة عقد أخلاقي بين الإنسان وربه، تواصل روحي دائم

1. الماوردي/1: 189.

بين الإنسان وخالقه، واستحالة فرض رقابة كاملة خارجية على سلوك الإنسان، واستكانته لرقابته الذاتية لوجود واستمرارية هذا التواصل.

حب المال وكراهية إنفاقه

قال تعالى:

«قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربِّي إنا لأمسككم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا» (الأسراء: 100).

«ولا يعسبن الذين يدخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم فيصوقون ما ضلوا به يوم القيامة» (آل عمران: 180).

«وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون» (التوبة: 54).

«ومن الأعرج من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الكواثر» (التوبة: 99).

الإنفاق والنفاق

قال تعالى: «هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا» (المنافقون: 7).

الاستغناء مع البخل أو الطغيان

قال تعالى:

«وأما من نحل واستغنى وكذب بالكسبي فسنيسره للعسر» (اليل: 7-10).

«أما من استغنى فأنت له نصيب وما عليك ألا يزكى» (عبس: 5-7).

«كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى» (العلق: 6-7).

وفي هذا الخطاب القرآني إقرار بأن الاستغناء ابتلاء من الله وامتحان منه، قد تكون نتيجته غير الطبيعية إمساك عن الإنفاق وكراهية إنفاقه. بل هناك ربط بين البخل والاستغناء من جهة، وبين احتمال البعد عن الدين والطفيان من جهة أخرى.

الاكتناز

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُجْمَعُ عَلَيْهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَرُ بِهِمَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَخُفَاهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا تُفْسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (التوبة: 34-35).

عندما تصل درجة حب المال وكراهية إنفاقه إلى مستوى الاكتناز يصبح الحرص على المال من الكبائر، ويدخل صاحبه إلى فئة الظالمين، ويصبح العقاب نار جهنم.

الإسراف

قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: 67).

﴿وَمَا تَوْقِظَهُ يَوْمَ حَصَافِهِ، وَلَا تَسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأنعام: 142).

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف: 29).

الخطاب القرآني يميز بين الإنفاق الذي يحث عليه والإسراف الذي ينهى عنه. فإذا كان الله عز وجل، هو الرازق فلا معنى أن يتصرف الإنسان بتهور فيما لا يملك إلا منفعته لا مصدره، بحكم أنه مستخلف فيه فقط.

حب إنفاق المال للتباهي به

﴿وَالَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ (النساء: 38).

﴿كَالَّذِي يَنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ (البقرة: 263).

الخوف من الإملاق

الإملاق هو كثرة إنفاق المال، وتبذيره يورث الحاجة.

قال تعالى في خوف الإنسان من الإملاق: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَاءَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ (الإسراء: 31).

أكل المال بالباطل

قال تعالى: ﴿وَأَخْلَصُوا إِلَيْهِ وَقَدْ نَهَوْنَا عَنْهُ وَأَوْكَلَهُمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْإِصْلَاحِ﴾ (النساء: 160).

كل هذه الآيات تحدد أخلاقيات التعامل بالمال في الإنفاق. فلا يحل أكل ما حرم أو ما كسب من الحرام. ولا يحل التمسك بالمال وكرهية إنفاقه. أو إنفاقه للتباهي به، ولا البخل بالمال أو الطغيان به، أو اكتناز المال، أو الإسراف في إنفاق المال وتبذيره.

وقد ربط القرآن بين الإنفاق وانحراف المسلم عن الدين في عدة آيات نذكر منها:

الإنفاق والفسق

قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ أَوْ كَرِهُوا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (التوبة: 53).

الإنفاق والكفر

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْكُفْرَ كَفَرُوا لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. مَثَلُ الْيَتِيمِ فِي هَذِهِ السَّيَةِ الْكُفْرَةِ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرَقَ قَوْمٍ ضَلُّوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكْتَهُ﴾ (آل عمران: 116-117).

وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ يَقْبَلُوا مِنْهُمْ نَفَقَاتِهِمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ (التوبة: 54).

ب. في الإنتاج

وذلك عن طريق تحريم الربا. قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ (البقرة: 274).

وقد أجاب الإمام جعفر الصادق رجلاً يسأل عن سبب تحريم الربا، بكلمة واحدة جامعة مانعة تحمل مضمونها أخلاقياً محضاً، حيث قال رضي الله عنه: "لكي لا يتمنع الناس المعروف"؛ والتمنع معناه عدم التشارك في النتائج بين المتعاقدين. فإذا أقرض شخص آخر وحقق المدين ربحاً كبيراً لن يتقاسمه معه، وإذا خسر لن يتقاسم الدائن معه الخسارة؛ بمعنى أن تحريم الربا ليس الأساس فيه أبعاده الاقتصادية، ولكن الأساس طبيعتها الأنانية المتعارضة مع هدف بناء الأمة وبالتالي ضمان خلق المصلحة المشتركة وتقاسم النتائج.

ج. في المعاملات الأخرى

الكذب في المعاملات عن طريق الأيمان

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْكُفْرَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يَكْلُمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْصُرُهُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران: 76).

«ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها» (النحل: 91).

«ولا تصع كل حلفاً مهيئاً» (القلم: 10). وهو كثير الحلف بالباطل

التخلف عن الجهاد

قال تعالى: «إنما السبيل على الذين يستأنفونك وهم أغنياء، رضوا بأن يكونوا مع الفول» (التوبة: 94). يعني يطلبون التخلف عن الجهاد.

البطر

دهش يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها وصرفها في غير وجهها (الأصفهاني 50)¹. وقيل كذلك التبخر بعد حصول النعمة.

قال تعالى:

«وكم أهلكنا من قرية بصري معيشتها» (القصص: 58).

«ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بصراً» (الأنفال: 48).

البغي

البغي طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى وقد يعني التعدي بالقوة.

قال تعالى:

«يألفها الناس إنما يغيبكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا، ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون» (يونس: 23).

«ينهر عن الفحشاء والمنكر والبغى» (النحل: 90).

«ولو بسخط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض» (الشورى: 25).

هـ. الحسد

قال تعالى: «أم يمسكون الناس على ما آتاهم الله من فضله» (النساء: 53).

وقال تعالى في النهي عن الإنفاق من الحرام: «ولا يقيموا الصييت منه تنفقون» (البقرة: 266).

1. انظر: "الكشاف الاقتصادي لآيات القرآن الكريم"، م، س، ص 142.

3. الأخلاق المستحبة

أ. الابتغاء من فضل الله؛ أي الكسب مما قدره الله

قال تعالى: ﴿رَبِّكُمْ الَّذِي نُزِيهَ لَكُمْ الْفُلَا فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ (الإسراء: 66).

ب. شكر النعمة

قال تعالى:

- ﴿وَإِذْ تَلَأْنَا رِبْكَمُ لِنَشْكُرَنَّ لَكُمْ﴾ (إبراهيم: 9).

- ﴿كَذَلِكَ يُبْرِزُ مِنْ شُكْرٍ﴾ (القمر: 35).

- ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: 14).

- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ أَشْكُرْ لَهُ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ (لقمان: 11).

- ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ (الزمر: 8).

ج. الإكثار من عمل الخير والإسراع به

قال تعالى:

- ﴿مَنْ عَا لَ الَّذِي يَقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ (البقرة: 243).

- ﴿إِنَّ الْمَصْدُقِينَ وَالْمَصْدَقَاتِ أَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يضاعف لهم ولهم أجر كبير﴾ (الحديد: 18).

- ﴿وَيَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ (آل عمران: 114).

د. الإنفاق من المستحب

قال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا قَبِيتُمْ﴾ (آل عمران: 92).

الاعتدال في الإنفاق

وهو أحد التفسيرات التي أعطيت للآية الكريمة: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ، قُلِ الْعَفْوَ﴾ (البقرة: 213).

التوكل على الله في الرزق

قال تعالى:

«وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه، وهو خير الرازقين» (سبا: 39).

«وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون» (الأنفال: 61).

الإنفاق من دون من ولا أذى

قال تعالى: «الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (البقرة: 261).

القناعة بالتفاضل في الرزق

قال تعالى: «والله فضل بعضكم عن بعض في الرزق» (النحل: 71).

إخفاء الصدقات والأمر بها

قال تعالى:

«وإن تنفوها وتوتوها الفقراء فهو خير لكم» (البقرة: 270).

«لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس» (النساء: 113).

وهكذا نجد أن على قمة الأخلاق المستحبة الابتغاء من فضل الله، وشكر النعمة والإكثار من عمل الخير والإسراع به، وأسمى السلوك في مجال الإنفاق الاعتدال فيه، والإنفاق من المستحب، والقناعة بأن كل إنفاق في الخير يوفى للإنسان فيه، والإنفاق من دون من ولا أذى، والقناعة بالنصيب في الرزق، وإخفاء الصدقات والأمر بها.

وهكذا نخلص إلى أن الأخلاق في الاقتصاد الإسلامي منظومة متكاملة لسلوك الإنسان مع المال، تعفيه من الوجهة العملية من البحث عن المعايير الأخلاقية ليضع تركيزه على المناهج التطبيقية لضمان توفير هذه المعايير. ومقاصد الشريعة الخمسة تضع الأركان الأساسية لتحقيق المعايير الأخلاقية الصالحة لكل زمان ومكان؛ هذه المقاصد تضع المال في خدمة الإنسان عوض أن تضع الإنسان في خدمة المال كما يظهر في النظام الليبرالي الغربي، وتضع المال في تألف مع الإنسان عوض أن تضعه في صراع مع الإنسان كما هو الشأن في النظام الاشتراكي.